

# الفصل الثالث

آراء أهل

المدينة الفاضلة

للفارابي

تمرُّ بالمرء ساعات يقول فيها إن أمراً ما « أفقده وعيه » أو إن « شدة الصدمة حالت بينه وبين الكلام » ، والواقع أن كلتي العبارتين متناقضتان ؛ ذلك لأننا في بعض الأحوال نجد أن الصدمة تشحذ شعورنا وتحملنا على التفوه بعبارات وكلمات تصف الوضع الذي نحن فيه . وفي بعض الأحيان ، عندما تخرج عواطفنا ، أو يُعبث بآرائنا ، أو يُسخر من أقوالنا ، نقف مفكرين بعض الوقت . وقد تكون خبرتنا في الحياة وشؤونها قد بلوناها بهذه الوسيلة ؛ وقد تكون معرفتنا بأسباب تلك الحياة قد اكتسبناها بتلك الوسيلة ؛ وقد تكون كل الفلسفة في العالم قد نشأت على هذا الوجه . ولعل خير الأمثلة على ذلك أن أفلاطون وأرسطو لم يكتبوا ما كتباه بطريق الصدفة عندما كان العصر الهليني يشهد التطور الذي أدّى إلى دمج الديلات اليونانية في امبراطورية عامة موحّدة ؛ وأن سانت أوغسطين قد أخرج الوجود كتابه في فلسفة التاريخ إبان انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهورها ؛ وأن ابن خلدون كتب « مقدمته » في التاريخ في أظلم عصور التاريخ الاسلامي ؛ وأن سقوط تفاحة عرضاً قد أيقظ نيوتن من سباته وجعله يضع بحث الجاذبية ، أو جعله - كما يقول جون تيندل ' - « يسير

عن تفاعلة سقطت إلى قمر هوى »

عندما نشاهد أوضاعاً تنقلب ، وأنظمة تتغير ، وعلاقات أُلغناها زمنياً ما تضطرب ، يهترينا ، بادى الرأي ، قلق شديد يحملنا على التفكير فيما آل إليه الحال : أسباب ونتائج ، فالحاجة أم الاختراع ، لافى الشؤون العملية فحسب ، بل فى ميدان العقل ومضمار الفكر أيضاً . إذ أنه لا بد من ضرورة ملحة لحمل الناس على اختراع آلة جديدة ؛ وكذلك لا بد من تغيير كبير فى سلوك الانسان ، وفى أساليب حياته لتغيير المذاهب الفكرية للمجتمع . وعلى هذا فان خير زمن لدراسة الجماعات الانسانية هو الزمن الذى يُصيبها فيه التطور . ذلك لأن الاستقرار النسبى للنظام الاجتماعى لا بد أن يضطرب حينذاك ؛ ولا بد كذلك أن تنشأ حالة ارتباك وتشوش واضطراب ، من تلك الحالات التى تصحب التطور عادة ؛ وكل هذه الأمور تستدعى فحص الافتراضات التى قامت عليها أركان المجتمع الانسانى على ضوء الأوضاع الجديدة . وقد يزيد كل ذلك فى الفرص المؤاتية لاكتشافات جديدة .

لقد كان الانسان منذ عرفه التاريخ فى حالة تطور مستمر دائم ، وكانت تقع أحداث طبيعية ومصطنعة تؤثر فى أوضاع الحياة البشرية ، ينتج عنها إما عرقلة حركات التطور إلى أجل مسمى ؛ أو تزويدها بقوى دافعة تسير بها قدماً فى مضمارها . وقد حدث أن كثيراً من الرجال الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم قد شهدوا نهاية عصر وولادة عصر آخر . وقد كانت دائماً تتصادم قوتان : قوة تعمل على توحيد الجهود الانسانية عامة ، وتنفيذ الأمم والشعوب من العزلة ؛ وقوة تعمل على التفريق بين الناس كافة هى سبب أو نتيجة للخلاف والعداوة والبغضاء المتأصلة فى النفوس الانسانية . وقد وقعت أحداث حاسمة فى تاريخ النوع الانسانى فى أزمنة مختلفة ، ووجد فى كل زمن فلاسفة وعلماء حاولوا فحص حياة المجتمع وتحليلها للوصول الى

معرفة أسباب الحوادث ومدى تأثيرها فى النظام الاجتماعى . من هؤلاء العلماء الفيلسوف المسلم الملقب بالمعلم الثانى أبو نصر الفارابى . فقد وقعت فى زمانه أحداث كثيرة فى بلاد الخلافة الإسلامية - من فتن داخلية الى خروج العمال والامراء على الخليفة والاستقلال بالمقاطعات التى تحت إمرتهم دونه . وارتباطهم بدار الخلافة برباط أسبى ؛ ومن تحكم الوزراء ورؤساء الجند بشخص الخليفة ، إلى مهاجمة الروم لأطراف بلاد الخلافة . لاحظ أبو نصر التطور الشديد الذى أصاب العالم الإسلامى فى أوضاعه والتغير الذى نزل بأساليب الحكم ونظامه ، فحدا به شعور فياض ممزوج بتقدير العجز الملائم للمساعدة الإنسانية ، الى التساؤل عما اذا كانت هنالك مشكلة حقيقية تحتاج الى بحث فى أسبابها ونتائجها وفى وضع دواء ناجع لحلها .

إن من الظواهر المألوفة فى أيام الأزمات أن بعض المسائل قد تتجلى وتكشف لعدد قليل من الناس ، ولكن عدداً وفيراً من هؤلاء قد يضع لها حلاً معقولاً فى آن واحد . وقد يتصور المفكر المعزول عن المجتمع والمستقل عن الجماعة أنه هو الوحيد الذى يشعر بجوهر المسألة الأساسية ، وهو فى الواقع قد غاب عنه أنه يعيش فى محيط اجتماعى عام ، وأنه يشارك الجماعة ، من قريب أو من بعيد ، فى شعورها العام وخبرتها الخاصة ، وفى حركتها الاجتماعية . إن حياة المجتمع المادية والعقلية والروحية على السواء تتخذ لذاتها صورة وحدة تامة لا تنقسم عراها ؛ وإنساناً فى تحليلنا لعقلية عبقرى قد ، أو لعالم موهوب ، أو لزعيم اجتماعى خالد نجد أنفسنا مسوقين بالضرورة إلى ارجاع أسباب نبوغ هؤلاء الى المحيط الذى نشأوا فيه وإلى البيئة التى عاشوا فيها . أما قولنا « انه لا جديد تحت الشمس » فهو يشير فى الواقع الى أنه يمكن ارجاع جل الأمور الى أصول قديمة لها بقدر ما تسمح بذلك المعرفة الإنسانية .

بهذه المقدمة القصيرة نتقدم لدراسة كتاب أبي نصر المعروف « آراء أهل المدينة الفاضلة » الذي حاول فيه أن يتصدى لبحث حالة المجتمع الإسلامى فى أيامه .

ولد أبو نصر فى النصف الثانى من القرن الثالث وتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ؛ وأصله « من » مدينة فاراب فيما وراء النهر ، فيلسوف المسلمين غير مدافع ، دخل العراق واستوطن بغداد ، وقرأ بها من العلم الحكيم على يوحنا بن جبلا المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر واستفاد منه وبرز فى ذلك على أفرانه وأربى عليهم فى التحقيق واشتهرت تصانيفه . . التى منها كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة . ابتداء بتأليفه ببغداد وحمله الى الشام فى آخر سنة ٣٣٠ هـ وأتمه بدمشق سنة ٣٣١ هـ .

ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول يبحث فى بعض أركان الفلسفة الإلهية كما عرفت فى أيامه ؛ والقسم الثانى يبحث فى المدينة الفاضلة وأهلها ؛ والقسم الثالث يبحث فى أضداد المدينة الفاضلة وهى المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة .

إن فلسفة الفارابى فى « آراء أهل المدينة الفاضلة » تتألف من فلسفة أفلاطون وأرسطو وأفلوطين زعيم الأفلاطونية الجديدة . واليك بعض آرائه :

« القول فى الموجود الأول : الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها ، وهو برى من جميع أنحاء النقص ؛ وكل ما سواه فليس يخلو من أن يكون فيه شئ من أنحاء النقص ، إما واحد وإما أكثر . .

وهو أزلى دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة في أن يكون أزلياً الى شيء آخر يمدُّ بقاءه . . . وهو الموجود الذي لا يمكن أن يكون له سبب به أو عنه أو له كان وجوده فانه ليس بمسادة ولا قوامه في مادة ولا في موضوع أصلاً . . . وليست له صورة ، لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلا في مادة . . . ١ ،

والموجود الأول هو الله واجب الوجود . لقد رفع أفلاطون وأرسطو وأفلوطين الله جل وعلا فوق الكائنات وقالوا بموجودين أزليين ، واجبي الوجود — في رأيهم — : هما الله ، والمادة ١ فلم يميزوا بين الخالق والمخلوق . ولكن الفارابي أثبت الوجود المطابق لله تبارك وتعالى ٢ .

« القول في كيفية صدور جميع الموجودات عنه - بالفيض : والأول هو الذي عنه وُجد ، ومتى وجد الأول الوجود الذي هو له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات . . . التي وجودها إنما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر ؛ وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو ٣ . ويفيض من الأول وجود العقل الثاني ( الذي يفيض عن واجب الوجود ) والسماء الأولى ؛

وفيض من الثاني وجود العقل الثالث وكرة السكواكب الثابتة ؛

وفيض من الثالث وجود العقل الرابع وكرة زحل ؛

وفيض من الرابع وجود العقل الخامس وكرة المشتري ؛

---

١ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢

٢ - الفارابي تأليف الحوري الياس فرح ، ص ٥٨

٣ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٧

ويفيض من الخامس وجود العقل السادس وكرة المريخ ؛

ويفيض من السادس وجود العقل السابع وكرة الشمس ؛

ويفيض من السابع وجود العقل الثامن وكرة الزهرة ؛

ويفيض من الثامن وجود العقل التاسع وكرة عطارد ؛

ويفيض من التاسع وجود العقل العاشر والعقل الفعّال وكرة القمر ؛

ويفيض من العاشر وجود حادى عشر ، وهذا الحادى عشر هو أيضاً وجوده لا فى مادة وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ولكن عنده منتهى الوجود الذى لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود الى مادة وموضوع أصلاً وهى الأشياء المفارقة التى هى فى جواهرها عقول ومعقولات . وعند كرة القمر ينتهى وجود الأشياء السماوية وهى التى بطبيعتها تتحرك دوراً ١ . « وأول نتيجة لفيض العقل الفعّال هى توليد العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب ٢ » والعقل الفعّال هو الذى يعطى العقل الهولانى الذى هو بالقوة عقل شيئاً ما بمنزلة الضوء الذى تعطيه الشمس البصر ٣ .

والنتيجة أن الفارابى شرح الفيض وتسلسل الكائنات عن المبدع الأول على طريقة افلوطين زعيم الافلاطونية الجديدة ، ولكن نظرية الفيض

---

١ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢٥ .

٢ - الفارابى ص ٦٢ .

٣ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٢ .

نفسها هي له ، وقال بالخلق من لا شيء تؤكد آ للحقيدة الاسلامية ١ »  
« السعادة : وهي الخير المطاوب لذاته وليست تطلب أصلا ولا في  
وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منها .  
وهي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود الى حيث لا تحتاج في

---

١ .. وهذه النظرية في الفيض هي للفارابي دون غيره من سبقه من الفلاسفة .  
وهي لم تعرف لدى أرسطو ، وقد كانت السبب في اتجاه الفلاسفة من بعده الى  
القول « بأن النفوس الانسانية تنبعث من آخر العقول السماوية ، وتملخص في  
أن الخلق لا يتم دفعة واحدة وإنما يفيض عن الله سبحانه عقل أول ، ثم يفيض عن  
هذا العقل عقل ثان وثالث ورابع وهكذا حتى ينتهي الفيض الى عشرة عقول ،  
آخرها العقل الفعال ، وهذا عند الفارابي واهب الصور ، والمصدر الذي يفيض منه  
صور الجماد والنبات والحيوان والنفوس الانسانية .

وقد اخذ الفارابي عن افلاطون فكرة التصوف العقلي فقال مثله بأن المعرفة  
الحقة هي السبيل الى خلاص النفوس من سجنها وعودتها الى عالمها العلوي .

واخذ عن أرسطو فكرة ان النفوس الانسانية صور لاجسامها ، وان المادة هي  
السبب الوحيد الذي يؤدي الى اختلاف الافراد فيما بينهم .

ومن ثم ذهب الى رأى غريب يقول بأن النفوس لما كانت صوراً للاجسام فانها  
تتحد بعد خروجها منها بسبب زوال السبب في اختلافها فتصبح نفسا كلية وتنقسم  
ثلاثة أنواع : منها ما اذا فارقت اجسامها انحلت وسعدت ، وكلما جاءها فوج آخر  
من جنسها اتحد بها وزادت سعادتها ، ومنها نفوس تشقى ويزداد شقاؤها كلما  
انضمت الى بعضها ، ومنها نفوس غير كاملة لانها تحتاج الى الجسم وتبقى مثقلة به ،  
فاذا جاء الموت انحلت اجسامها ، وفنيت هي . »

من كلة في جريدة الاهرام بتاريخ ١٨ اغسطس سنة ١٩٥٠

للاستاذ مصطفى سليم

تقوامها إلى مادة وذلك أن تصوير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد .

ولنبحث الآن في القسم الثاني من الكتاب - المدينة الفاضلة وأهلها :

لقد عاصر الفارابي العهد الذي ابتداء فيه أفول الامبراطورية العربية في عهد العباسيين . وكانت شمال افريقيا إمارة مستقلة تحت الحاكم الذي أسس دولة الأغالبة والذي جعل منصبه وراثياً في أسرته ، واستقلت ولاية إثر الأخرى بسرعة فاقطعت مصر وسوريا من الامبراطورية وأسست دول مختلفة في فارس وأصبحت سلطة الخليفة العباسي لا تكاد تتعدى تخوم مدينة بغداد ، بينما أصبح الخليفة نفسه تحت رحمة جيوشه الأجنبية التركية الفوضوية المتمردة ، فخلع الخليفة المقتدر مرتين ، وفي نهاية حكمه المنجل الموسوم بسكر شديد وانهاك في الشهوات والتبذير ، قُتل في مناوشة مع أحد قواده فشكَّ رأسه في ربح وترك جسمه ملقاً على الأرض حيث سقط<sup>١</sup> .

« وسمت الخطة التي تدهورت اليها الخلافة خلال هذا الحكم بالانشقاق الكبير الذي أسس خلافة منافسة في المذهب السني ، فلم يحاول ، حتى هذا الدور ، حكامُ الاندلس الأمويون أن يدعوا لأنفسهم زعامة العالم الاسلامي التي تمتع بها أجدادهم في دمشق أيام الفتوحات العربية العظيمة ، واكتفوا بلقب أمير وسلاطان وابن خليفة ؛ ولكن عبد الرحمن الثالث ، الذي وصل بالاندلس المسلمة الى مركز أسمي مما كانت عليه قبلاً ، قرَّر أن يتخذ لنفسه لقب الخليفة - الذي يبدو أن العباسيين في بغداد لم يعودوا أهلاً لحمله ، فأمر أن يُدعى بخليفة وأمير المؤمنين في صلاة الجمعة وعلى الوثائق الرسمية ؛ وكأنه نظر نظرة شفقة واستخفاف إلى المقتدر الذي كان يُمثَّل

أسرة العباسيين والذي كان ما يزال يستعمل ألفاظاً طائفة كتلك ١ .

وبعد وفاة المقتدر انتخب أخوه القاهر ليعقبه ، ثم خلع بعد حكم إرهابي دام سنتين فقوات عيناه بابرئين حاميتين حتى الاحمرار وعُذِّب ليهوج بالمكان الذي خبأ فيه كمنوزه وألقي في السجن وترك هناك مدة إحدى عشرة سنة لإصراره على الـكتـمان . وبعد أن أفرج عنه وُجد بحالة فقر مدقع يستجدي الصدقات في أحد الجوامع ، بينما أقيم حفيده على العرش ثم نصب المتآمرون الراضى عوضاً عنه ، وهو ابن المقتدر المقتول ، وكان آلة عقيمة في أيدي الوزراء الأقوياء مدة سبع سنوات لا يملك من الخلافة سوى الاسم . ويقال إنه آخر خليفة ألقى خطبة في صلاة الجمعة . وبعد وفاته أعقبه أخوة المتقي ، ولكن بعد شهور قليلة اضطرت ثورة الجنود الأتراك أن يهرب من عاصمته ويلتجئ إلى الموصل حيث طلب حماية الأمراء الحمدانيين سيف الدولة وناصر الدولة اللذين كانا يتسابقان في إكرام الشعراء العرب ورجال الأدب في بلاطهم اللامع في الموصل وحلب .

وقد اشتهر هذان الأخوان بأعمالهما العسكرية الجليلة ولكنهما اضطرا حالاً إلى التخلي عنه ليراعوا الأمور في ممتلكاتهم الخاصة .

واضطرت مؤامرة أخرى الخليفة التعتيس أن يهرب من بغداد مرة ثانية ، ولكنه سلم نفسه مقهوراً - بعد استغاثات غير مجدية لمختلف الأمراء المسلمين لاسعافه - إلى القسائد التركي طوزون الذي كان سبياً في كثير من همومه . ورغماً من أن طوزون استقبله أولاً بمظاهر الاحترام إلا أنه سمل عينيه بالنتيجة بحديدة حامية واضطره إلى التنازل عن الخلافة ونصب المستكفي مكانه . وفي السنة التالية مات طوزون ولكن الخليفة انتقل من يدي سيد إلى آخر وأجبر آنئذ إلى الترحيب بالبويهيين في عاصمته ؛ أولئك

الذين هددوا — بتقدُّمهم الموفق من جنوب فارس — سلطنة الجنود الأتراك التي كانت تخيف سكان العراق منذ أمد طويل . وقد تظاهر الأمير البويهى باحترام الخليفة وتقبل منه ألقاب الشرف ، ولكن القوة الحقيقية كانت فى أيدي فاتحي العاصمة الاسلامية الحديثة . ثم سملت عينا المستكفي أيضاً . وهكذا شهد الفارابي في وقت واحد ثلاثة خلفاء عباسيين أحياء كانوا تقلدوا منصب الخلافة السامى ، وكلهم حرموا نعمة البصر قسراً ، وكلهم سلبوا ثرواتهم وعاشوا فى عمام على الاحسان وعلى الراتب الضئيل الذى كان يتصدق به الحاكم الجديد عليهم . راعه ذلك المشهد ، وأخذ يبحث عن حل لمشكلة العالم الاسلامى ، فانكبَّ على دراسة جمهورية افلاطون واقتبس منها كثيراً من آرائه السياسية ، وبدأ مدينته الفاضلة بفصل يبحث فى نشأة المجتمع :

« القول فى احتياج الانسان إلى الاجتماع والتعاون : - وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبالغ أفضل كالاته إلى أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشئ مما يحتاج إليه . وكل واحد من كل واحد بهذه الحال . فلذلك لا يمكن أن يكون الانسان ينال الكمال الذى لأجله جمعت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماع جماعات كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه وفى أن يبالغ الكمال . ولهذا كثرت أشخاص الانسان فوصلوا فى المعمورة من الارض فحدثت منها الاجتماعات الانسانية : منها الكاملة ، ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث ، عظي ، ووسطى ، وصغرى . فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة . والوسطى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة . والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن

أمة . وغير الكاملة أهل القرية واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل . وأصغرها المنزلة والمحلة . والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة . إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة . والمحلة للمدينة على أنها جزؤها . والسكة جزء المحلة . والمنزلة جزء السكة . والمدينة جزء مسكن أمة . والأمة جزء جملة أهل المعمورة .

فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولاً بالمدينة ، لا بالاجتماع الذى هو أنقص منها .

ولما كان شأن الخير فى الحقيقة أن يُنال بالاختيار والإرادة ؛ وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار ؛ أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التى هى ضرور . فلذلك كل مدينة يمكن أن يُنال بها السعادة .

فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تُنال بها السعادة فى الحقيقة ، هى المدينة الفاضلة .

والاجتماع الذى به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل . والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تُنال به السعادة هى الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون ، إذا كانت الأمة التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة ١ .

والواقع أن بالإنسان حاجة إلى الاجتماع والتعاون . فلولاء الحماية والحماية التى ينالها الطفل الحديث الولادة من الأغيار لما عاش . وحماية الجماعة ضرورية له . ولكن الجماعات تقوم بأعمال أخرى كثيرة ، زيادة

على العناية بالطفل وحمايته . فهي تهذب به وتثقفه وتقيّد سلوكه في كثير من شؤون الحياة وشجونها . وعمل الجماعات الاجتماعية أنها تنقل « الميراث الاجتماعي » من جيل إلى جيل . إن ضغط الثقافة على الفرد يتم على الغالب بواسطة الجماعة . فالطفل يبدأ تلقّن الثقافة من جماعة أسرته . فتكون الأسرة على هذا — كما قال جولدنويّر بحق — « مركز حوالة المدينة » .

ولا تتوقف جلالة الجماعة ومنزلتها على نقل الثقافة فحسب ، فإن حياتها ذاتها تترك طوابعها الكثيرة على الفرد . فهي تصقل شخصيته . وتتوقف على الخبرة التي يكتسبها الفرد بين الجماعة أن يكون زعيماً أو تابعاً ، تساوياً أو مستقلاً ، اجتماعياً أو معزلاً للناس .

وحاجات الانسان الضرورية قليلة العدد ، كالحصول على الطعام وحفظ النسل وتربيته . ومن الطبيعي أن نجد المؤسسات والنظم في كل الأزمان تدور حول هذه الحاجات .

وهناك مجموعة من المؤسسات الاجتماعية قد نظمت على أسس اقتصادية ؛ مثال ذلك الشؤون الصناعية والمالية والزراعية في المجتمعات الحديثة . أما في أوائل عهود الانسان فقد كانت النظم الاقتصادية تدور حول جمع الأطعمة وصيد الحيوانات والأسماك . وكان تحضير الطعام وتجهيزه من خصائص الأسرة . ثم نشأت مع الزمن الملكية بشكل الاختصاص الفردي بالألبسة وأدوات الزينة والأثاث والأدوات والآلات والخيول والأنعام وما إلى ذلك . ونشأت قواعد الملكية الفردية . ثم نتج ، عن تقدم التجارة والنقود ، التخصص وتوزيع العمل ، بين المؤسسات الاقتصادية .

وهناك مجموعة أخرى من المؤسسات الاجتماعية تقوم على أساس الجنس . والأسرة ميدان هذه المجموعة . لقد وُزِعَ العمل في الأسرة منذ القديم فاختُصَّ الرجل بالصيد والحرب حين الحاجة ، واختُصَّت المرأة بالعناية بالأولاد .

ثم نجد مجموعة ثالثة من المؤسسات الاجتماعية قوامها العقيدة . اعتقد الانسان ، منذ القديم ، بأن هناك قوة تُديرُ هذا الكون ، فأخذ يتقرب اليها ويبعدها بشتى الطرق : فنتج عن ذلك وجود أنظمة معينة لكل عمل وحدث يقع فيه الانسان . فهناك صلوات واحتفالات خاصة لحالات الولادة والزواج والموت والحرب وهكذا . . .

وهناك مجموعة رابعة من تلك المؤسسات وهي تشتمل على رعاية مصلحة الجماعة كلها . وقد نتج عن هذه المؤسسات في الأزمنة الحديثة وجود « الدولة » . ولما كانت مصلحة الجماعة كلها تضطرب إبان الحروب ، لذلك فإن الحروب قد صهقت نظام الدولة ونمته الى حد بعيد . وأصبح من واجبات الدولة توزيع العدل وحماية الضعيف من القوى ومعاقبة الأفراد الذين يعيشون في الأرض فساداً . وقد وسَّع مناطق نفوذ الدولة وإدارتها تقدم وسائل النقل والاتصال تقدماً زاد في عدد الشعوب والعناصر التي تدخل في حكم الدولة الواحدة .

لقد تضمن بحث الفارابي الذي اقتبسناه آنفاً هذه المجموعات بعينها ؛ وهناك مجموعات أخرى قد تدخل فيه كأظمة التعليم والصحة وغيرها أُلْمِعَ اليها في صفحات أخرى من كتابه . وعبَّرَ الفارابي عن الدولة بالمدينة الفاضلة ، ورأى أن الخير والشر يُنالان بالاختيار والإرادة ، ولكن الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولاً بالمدينة ، لا بالاجتماع الذي هو أنقص

هنا . وهذه هي نظرية « الميراث الاجتماعي »<sup>١</sup> سافرة ظاهرة .

« والمدينة الفاضلة هي التي يُقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة . والسعادة هي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة . والأفعال الارادية التي تدفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة . والاجتماع الذي به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل . والأمة التي تتعاون مُمدّنها كلها على ما تنال به السعادة ، هي الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمة التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة .

وللمدينة الفاضلة أجزاء مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات : وفيها إنسان هو رئيس ؛ وآخرون تقرب مراتبهم من الرئيس ؛ وفي كل واحد منهم هيئة وملكة ( ممكنة ) يفعل بها فعلاً يُقتنى به ما يريد ذلك الرئيس . وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء هم في الرتبة الثانية .

ودون هؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يُخدمون ، ويكونون في أدنى المراتب . ويكونون هم الأسفلون<sup>٢</sup> .

وقد شبه أبو نصر تآلف أعضاء المدينة الفاضلة وتعاونها بانتظام أعضاء البدن وتناسقها في تأدية وظائفها : « فالبدن الصحيح تتعاون أعضاؤه كلها على تسميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه . وهي مختلفة متفاضلة الفطرة

والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب ، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو غرض ذلك العضو الرئيس ، غير أن أعضاء البدن طبيعية . وأجزاء المدينة ، وإن كانوا طبيعيين ، فإن الهيئات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل إرادية . على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاحلة يصلح بها انسان لشيء دون شيء . غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها ، بل بالملكات الارادية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها .

واننا نرى أن الفارابي أصاب بقوله « وأجزاء المدينة وإن كانوا طبيعيين ، فإن الأفعال التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل ارادية » ففرق بين ما يسميه المحدثون « البيئة الطبيعية » و « الميراث الاجتماعي » . قالوا :

ان البيئة التي تنمى في الانسان قواه المختلفة وتغرس فيه مؤهلاته وكفاءاته هي واسعة عريضة . وفيها العادات والمؤسسات والكتب والاجتماعات المتنوعة . ولا تمتنع الطبيعة الحيوانات الدنيا بهذه البيئة . انها تولد في بيئة تتألف من الارض والشمس والسماء والماء والشجر والنبات والحيوانات الأخرى التي تشاطرها تلك البيئة . وهذا ما يسمى « البيئة الطبيعية » . وقد اقتصر بحث علماء الأحياء عليها .

وقد بحث فيها هربرت سبنسر تحت عنوان « البيئة الحية » و « بيئة الجماد » . ويشاطر الانسان الحيوانات الأخرى هذه البيئة .

أما النوع الثاني من البيئة فهي ، التي يستقل بها الإنسان دون باقي الحيوانات . وهي تتألف من الأبنية والآلات والأدوات والسكك والفن والعلم والدين وجميع الأساليب والطرق للقيام بالأعمال التي يمارسها الناس .

وقد سميت هذه البيئة التي ليست نباتاً وحيواناً ، ولا أرضاً وسواء ، بأسماء مختلفة . فأطلقوا عليها « الميراث الاجتماعي » ، تمييزاً لها عن « الميراث الطبيعي » . ويسمى علماء الاجتماع هذه البيئة « الثقافة » . وهذه العبارة متى استعملت في علم الاجتماع تعظم معنى أوسع من المعنى المحدد لها عند رجال الأدب والفن . وإن لفظة « التمدن » تصف الثقافة في أعلى درجاتها <sup>١</sup> .

« أما رئيس المدينة فليس يمكن أن يكون أى انسان اتفق ، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين :

الاول — أن يكون كامل العقل قوى الإدراك يوحى الله عز وجل اليه بتوسط العقل الفعّال ، فيكون ما يفيض من الله تبارك وتعالى الى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعّال الى عقله المنفصل بتوسط العقل المستفاد ثم الى قوّته المتخيلة ، فيكون بما يفيض منه الى عقله المنفصل حكيماً فيلسوفاً ومتحقلاً على التمام ، والثانى — أن تكون قوّته المتخيلة قوية كاملة جداً لا تستولى عليها المحسوسات الواردة اليها من خارج استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا تخضعها للقوة الناطقة بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التي تخصها ، يفيض العقل الفعّال بصور الجزئيات فتتخيلها القوة المتخيلة وتحاكمها بمحسوسات في نهاية الجمال والكمال ويصير الانسان بهذا الفيض الى قوّته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ونخبراً بما هو الآن .

فهذا هو الرئيس الذى لا يرؤسه انسان آخر أصلاً وهو الامام وهو الرئيس الاول للمدينة الفاضلة وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها ، ولا يمكن أن تصير هذه الحال الا لمن اجتمعت فيه بالطبع

اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها . وهي أن يكون : تمام الأعضاء ؛ جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له فيتلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ؛ جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه ، ولما يسمعه ، ولما يدركه ؛ جيد الفطنة ، ذكياً ، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له ؛ حسن العبارة ، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يُضمّره إبانة تامة ؛ مُحِبّاً للتعلم والاستفادة ؛ غير شره على المأكل والمشرب والجماع ؛ مُحِبّاً للصدق وأهله ، مُبْغِضاً للكذب وأهله ؛ كبير النفس محباً للكرامة ؛ الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيئة عنده ؛ محباً للعدل وأهله ، ومبغضاً للجور والظلم وأهلها ، قوى العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ، جسوراً عليه مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس .

وليس من شك في أن أبا نصر نظر في صفات رسول الله ﷺ فاقتبس منها الاثنتي عشرة خصلة السالفة الذكر . وحصر الرئاسة فيه ﷺ قائلاً : « واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عسير ، فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس » .

أما الرئيس الثاني ومن يخلفه من الرؤساء فيجب أن تتوفر في كل منهم ست شرائط : أن يكون حكيماً ؛ أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسير التي دبرها الأولون للمدينة ، محتدياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها ؛ أن يكون له سجودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيه شريعة ويكون فسيما يستنبطه من ذلك محتدياً حذو الأئمة الأولين ؛ أن يكون له سجودة روية وقوة استنباط لما سبيله أن يعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التي تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون ويكون متحرراً بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة ؛ أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين وإلى ما استنبط بعدهم مما احتذى فيه

حذوهم ؛ أن يكون له جُودة ثبات بيده في مباشرة أعمال الحرب ، وذلك أن تكون معه الصناعة الحربية الخادمة<sup>١</sup> والرئيسة<sup>٢</sup> .

وهذه الشروط التي اشترطها أبو نصر لرؤساء المدينة هي في الواقع مؤهلات الإمامة في الشريعة الإسلامية الغرام كما بسطها الفقهاء ، ما عدا شرطين ، يتجاوز عنهما الفارابي ، وهما شرط النسب الذي يحصر الخلافة في قریش ، وشرط الحكمة الذي جملة جزء الرياسة . قال الماوردي :

« وأما أهل الإمامة فالشروط المعتمدة فيهم سبعة<sup>٣</sup> : أحدها العدالة على شروطها الجامعة ؛ والثاني العلم المؤدى إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام ؛ والثالث سلامة<sup>٤</sup> الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ؛ والرابع سلامة<sup>٥</sup> الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض ؛ والخامس الرأي المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ؛ والسادس الشجاعة<sup>٦</sup> والنجدة<sup>٧</sup> المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو ؛ والسابع النسب<sup>٨</sup> وهو أن يكون من قریش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه<sup>٩</sup> .  
وليس الفارابي هو الوحيد بين علماء المسلمين الذي لم يشترط أن يكون الخليفة قرشياً ، فقد روى الماوردي « أن ضراراً شذَّ فجوزها في جميع الناس » .

وقد قصد أبو نصر أن يكون الحكم في مدينته مطلقاً أو تو قراطياً يقوم بأعبائه رئيس<sup>١٠</sup> واحد ، إن وجد ، « فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه تلك الشرائط ، ولكن وجد اثنان ، أحدهما حكيم والثاني فيه الشرائط الباقية ، كانا هما رئيسين في هذه المدينة ؛ فإذا تفرقت هذه في جماعة ، وكانت

١ - المدينة الفاضلة ، ص ٨٨ - ٨٩

٢ - الأحكام السلطانية للماوردي ، ص ٤ - ٥

الحكمة في واحد ؛ والثاني في واحد ؛ والثالث في واحد ؛ والرابع في واحد ؛  
والخامس في واحد ؛ والسادس في واحد ؛ وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساء  
الأفاضل . فاذا اتفق في وقت ما أن لم تكن الحكمة جزء الرياسة ، وكانت  
فيها سائر الشرائط بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك ؛ وكان الرئيس القسام  
بأمر هذه المدينة ليس بملك ، وكانت المدينة تعرض للهلاك <sup>١</sup> .

« وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون في الازمنة المختلفة ، واحداً بعد  
آخر ، كلهم كمنفس واحدة ، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله <sup>٢</sup> . »

ولم يبين أبو نصر طريقة تولية الرئيس : أيكون ذلك بالانتخاب أم  
يكون بالتمعين . مع أن فقهاء المسلمين بحثوا في ذلك صراحة ونصوا على  
أن « الإمامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والثاني  
بعهد الإمام من قبل <sup>٣</sup> . »

١ - المدينة الفاضلة ، ص ٩٠

٢ - المدينة الفاضلة ، ص ٩٢

٣ - الماوردي ، ص ٤ ، لخص سير توماس أرنولد في كتابه الخلافة ( ص ٣٧ )  
عن شروط الانتخاب والتمعين ما نصه :

« أكد الماوردي متغاضياً عن وقائع التاريخ خلال القرون الأربعة السابقة من  
التقويم الهجري أن منصب الخليفة أو الإمام هو انتخابي وعدد مؤهلات الناخبين :  
فيجب أن يكونوا من ذوى السمعة الحسنة والحياة المستقيمة ( فيهم الدعاة الجامعة ) ،  
ذكوراً بالغين ، ويجب أن يعرفوا الصفات المطلوبة في الإمام ( فيهم العلم الذى يتوصل  
به الى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها ) ، وأن يكون لديهم وعى  
وحكم كافيان ليحكموا باختيارهم ( فيهم الرأى والحكمة المؤديان الى اختيار من هو  
للإمامة أصح وتدير المصالح أقوم وأعرف ) ؛ وسعى بأسلوب عبقري ليلاثم نظرية  
الانتخاب مع ما عرفه من أن كل خليفة تقريباً كان يعين خلفه ، فأوضح أن العلماء لم

وقد شعر أبو نصر بالمركز التابع الذي انحدرت اليه الخلافة وقيام الدول الإسلامية المستقلة التي كانت تتفاضى عن سلطان الخليفة ، وشاهد أن الخلفاء في زمانه لم يكونوا قادرين على ممارسة أى سلطة فى القضايا الدنيوية مهما تكن ، وإنما اقتصرت وظائفهم على شؤون الدين والعقيدة فقط ، فقسم سكان المدينة الفاضلة مراتب تقصد جميعا بأفعالها غاية الرئيس وتصدر عنه فى حركاتها وسكناتها :

« وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات . وفى كل واحد منها هيئة ومملكة تفعل بها فعلا يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس :

وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ،

ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .  
وهؤلاء فى الرتبة الثانية ،

يتفق على عدد الناخبين اللازم لمشروعية الانتخاب ، لأن بعضهم تمسك بأن يكون اتفاق إجماعى من كل المسلمين ذوى الأهلية فى كل قسم من العالم الإسلامى ، ولم يكن بالإمكان العمل بانتخاب كهذا فى ظروف الحياة فى ذلك العصر ، فيذكر انتخاب أبى بكر كمال ، فإن أولئك الحاضرين لدى وفاة زعيم الجماعة السابق صلى الله عليه وسلم كانوا كافين لتمثيل جرع المسلمين بكاملهم . والمملكة الباقية هى عدد الأشخاص الذين يمكن فى حالة كهذه السماح لهم بتمثيل رأى الجماعة بكاملها ، فيذكر الماوردى أنه كان خمسة فى انتخاب أبى بكر ، وعين عمر قبل وفاته مجلساً انتخابياً مؤلفاً من ستة ، ولكن علماء آخرين ارتأوا بأن ثلاثة أشخاص بكفون ، لماثلته مع عقد الزواج الذى يمكن أن يقرم به شخص واحد أمام شاهدين ، ويعتبر مع ذلك آخرون ، أن الانتخاب يمكن إعلانه بسوت مفرد . وهكذا توصل الماوردى الى النتيجة هى أنه يحق للخليفة تعيين خليفة . ويمكن بهذا من المحافظة على طابع المؤسسة الانتخابية .

ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ويكُونون في أدنى المراتب ويكُونون هم الأسفلون .

لقد قسم الفسارابي المجتمع إلى مراتب تُبَيِّن مركز الفرد بين الجماعة ، سواء أكان رئيساً أم كان تابعا . وحصر وظائف الناس في المدينة على وجه التحقيق . وجعل من وظائف الرئيس الضمنية أن يضع الخطط ويبين الأهداف والمقاصد للمدينة ويصدر الأوامر ويراقب تنفيذها . أى إنه أناط به القيام بوظائف معينة ، أو بعبارة أخرى جعل له صفة معينة حتمت عليه أن يقصد بتصرفاته مصلحة المجموع <sup>١</sup> . ومرتبات الفسارابي تسمى في المصطلح الاجتماعى الحديث مراتب قانونية Formolized Statuses لا يهم المجتمع شخصية الأفراد الذين تخضع عليهم « الصفة Rôle » بقدر ما يهمه استمرار الحياة والإدارة اليومية وسيرهما على الوجه الصحيح من أجل المصلحة العامة . ومرتبات الفسارابي الاجتماعية تكاد تشبه الهرم الأبتري ( Truneated Pyramid ) شأنها في ذلك شأن جميع المجتمعات المؤلفة من طبقات أو مراتب اجتماعية ، تقوم أدناها على القاعدة وتنتظم المراتب الأخرى فوقها مُصعدا ، الدنيا تحت العليا إلى أعلى المراتب . وبما لا شك فيه أن أدنى المراتب في تقسيم الفسارابي كانت طبقة العبيد ، وأن أعلاها كان الخليفة ، ودونه الملوك ، ودونهم الوزراء ، ودونهم العمال ، ودونهم رؤساء الجند ، والجنود ، وجمهور الأمة .

---

١ - قال الفقهاء إن التصرف على الرعاية مئوط بالمصلحة . وقد سمي علماء الاجتماع « التصرف المضاف إلى المرتبة أو المركز صفة Rôle »

ولم يحدثنا الفسارابي عما ينتظر كل مرتبة من « أنصبة الحياة » Life chances ، مع أن المفهوم ضمناً أن لأفراد كل مرتبة حقوقاً متماثلة في « أنصبة الحياة » . ويُقصد « بأنصبة الحياة » التمتع بطيبات العيش ، كالحرية ، ومستوى المعيشة العالي ، والراحة والاحترام ، وكل الأشياء الأخرى التي يقدر لها المجتمع قيمة عالية . وأهل أعلى المراتب ، أو المتنفذون ، هم - كما يقول لاسويل<sup>١</sup> - « الذين يحصلون على أكبر قسط مما يمكن الحصول عليه » . ولكن أبا نصر بيّن أن أهل الصناعة الواحدة يتفاضلون بالكمية ، كأن يكون كاتبان مثلاً علم أحدهما من صناعة الكتابة أكثر ، وآخر احتوى من أجزائها على أشياء أقل : مثل أن هذه الصناعة تلتزم باجتماع علم شيء من اللغة وشيء من الخطابة وشيء من جودة الخط وشيء من الحساب ، فيكون بعضهم قد احتوى من هذه على جودة الخط مثلاً ، وعلى شيء من الخطابة ؛ أو آخر احتوى على اللغة وعلى شيء من الخطابة وعلى جودة الخط ، والآخر على الأربعة كلها . فهو لاء مع أنهم من مرتبة واحدة يجب أن لا يتساووا في « أنصبة الحياة » طبعاً ؛ بل ينال كل منهم نصيباً بمقدار كفاءته ومؤهلاته .

ولنبحث الآن في القسم الثالث من الكتاب وهو مضادات المدينة الفاضلة .

لقد وضع الفسارابي الأسس لإدارة الحكم في العالم الاسلامي وبين أفضل الأنظمة في رأيه لاقامة حكم عادل يتوخى مصالحة المجتمع في أيامه ، وبين أن تصرف الرئيس يهدف الى بلوغ السعادة الامة جميعا ، ولما لم تكن الأحوال في الامبراطورية الاسلامية تتلاءم مع هذه الأهداف ، أفرد أبو

نصر الفصول الأخيرة من كتابه في وصف الحياة العامة في البلاد الإسلامية في أيامه مُتَسَتِّراً وراء تعريفات وضعها لما سماه مضافات المدينة الفاضلة . فالناس في زمانه « لم يعرفوا السعادة ولا خُطرت بياهم ، إن رُشدوا إليها لم يقيموها ، ولم يعتقدوها ، وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التي هي مضمونة في الظاهر أنها خيرات من التي تظن أنها هي الغايات في الحياة وهي : سلامة الأبدان ، واليسار والتمتع باللذات ، وأن يكون المرء مخلي هواه ، وأن يكون مكرماً ، ومعظماً . فكل واحد من هذه سعادة عند أهل المدينة الجاهلة » . ثم يجد من الناس في زمانه « من قصد لهم الاقتدار على الضروري مما به قوام الأبدان من الماء كـول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح والتعاون على استفادتها » . ومنهم من « يتعاونون على بلوغ اليسار والثروة ولا ينتفعون باليسار في شيء آخر ، ولكن على أن اليسار هو الغاية في الحياة » . ومنهم من يتمتعون باللذة من الماء كـول والمشروب والمنكوح ، وبالجملة اللذة من المحسوس والمتخيل وإثارة الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو . ومنهم من يتعاونون على أن يصيروا مكرمين ومدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم بمجدين معظمين ، قاهرين لغيرهم ، أحراراً يعمل كل واحد منهم ما شاء ، لا يمنع هواه في شيء أصلاً » . والأمة الإسلامية في عهده كانت « آراؤها الآراء الفاضلة وهي تعلم السعادة والله عز وجل والعقل الفعال وكل شيء سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدوه ، ولكن أفعالهم أفعال أهل المدينة الجاهلة » . وكل واحد من ملوكهم إنما يدير المدينة التي هو مسلط عايسها ليحصل هواه وميله » . والخليفة ما يزال نظرياً رئيس الدولة الإسلامية ، وكيفما قدر للملك أن يتقلد السلطة ، فانه كان يجد من السياسة أن يعترف للخليفة بأنه المصدر النظري لجميع السلطات ، كما فعل بنو بويه في أيام الفسارابي . فانهم بالرغم من أن احتلالهم لبغداد كان

أوج توسع ممتلكاتهم وبالرغم من أن الخليفة العباسي كان أسيراً في محبتهم فقد وجدوا من السياسة تمويه استقلالهم التام بمظاهر من الخضوع ، وإعطاء حكمهم مظهر أ من الشرعية بقبولهم الألقاب منه . وهذا هو خلاصة وصفه لحياة المجتمع الاسلامي وملوكه في أيامه .

بقي علينا أن نبحث في الاستعباد والعدل كما ذكرهما الفارابي :

« تروم كل طائفة من الناس أن تسلب جميع ما للأخرى من ( حقوق وطيّبات ) وتجعل ذلك لنفسها ، ويكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال ؛ فالقاهرة منها للأخرى على هذه هي الفائزة وهي المغبوضة وهي السعيدة . وهذه الاشياء هي التي في الطبع ، إما في طبع كل إنسان أو في طبع كل طائفة ، وهي تابعة لما عليه طبائع الموجودات الطبيعية . فما في الطبع هو العدل ؛ فالعدل إذاً التغالب ، والعدل هو أن يُقهر ما اتفق منها . والمقهور إما أنه قُهر على سلامة بدنه أو هلك وتلف . وانفرد القاهر بالوجود ، أو قُهر على كراهته وبقي ذليلاً ومستعبداً ، تستعبده الطائفة القاهرة ويفعل ما هو الأنفع للقاهر في أن ينال به الخير الذي عليه الغالب ويستديم به . فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضاً من العدل ، وأن يفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر هو أيضاً عدل . فهذه كلها هي العدل الطبيعي وهي الفضيلة ، وهذا هو العدل الطبيعي في رأى أهل المدينة الجاهلة والضالة <sup>١</sup> . »

إن هذه هي النظرية الرومانية في الرق والاستعباد . قالوا : « إن هنالك عقداً ضمناً بين الغالب والمغلوب يجعل للغالب حق تملك عدوه المقهور كعبد في مقابل الابقاء على حياته من القتل » .

فالعدل إذاً — على ما نقل الفارابي — هو التغالب . « وأما سائر ما

يسمى عدلاً مثل ما في البيع والشراء ومثل ردّ الودائع . . . فان مستعمله إنما يستعمله أولاً لأجل الخوف والضعف وعند الضرورة الواردة من خارج . وذلك أن تكون طائفتان تتداولان القهر فيطول بينهما ثم تصطلحان وتشتري كل واحدة منهما أنها لا تروم نزع ما في يدي الأخرى ، إلا بشرائط وهي الموضوع في البيع والشراء والتي نشأت من الخوف والضعف . وقد يضطر شيء وارد من خارج الطائفتين أن تأتلفا مؤقتاً وتجتمعاً ريث الحاجة فتتبادلان البيع والشراء فاذا زال ذلك الوارد من خارج تنافرتا وافترقتا ووقعتا في الداء السبعي من آراء الانسانية .

تلك هي مدينة الفارابي الفاضلة ، وأولئك هم أهلها الذين لهم أشياء مشتركة يعملونها ويفعلونها ، وأشياء أخرى من علم وعمل تخص كل رتبة وكل فرد منهم . وغاية تلك الأشياء جميعاً إبلاغهم السعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة .